٢ ـ الجمال البائس

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

جاءتْ أحلى من الأمل المعترض سَنَحَتْ به فُرصة ؛ وعلى أنها لم تَخْطُ الينا إلا خَطْوةً وتمامَها ، فقد كانت تجدُ في نفسها ما تجده لو أنها سافرت من أرضٍ إلى أرضٍ ، ونقلها البُعدُ النازحُ من أمّةٍ إلى أمة

يا عجباً ! إن جلوسَ انسانٍ إلى انسان بازائه قد يكون أحياناً سفَراً طويلاً في عالَم النفس ؛ فهذه الحسناءُ تعيشُ في دنيا قارغة من خِلال كثيرة ، كالتقوى ، والحياء ، والكرامة ، وسمو الروح ، وغيرها ؛ فاذا عَرَضَ لها من يُشعِرُها بعضَ هذه الخلال ، ويَنْتزِعُها من دنيا اضطرارها وأخلاقِ عيشها ولو ساعة — لها تكون قد وجدتْ شخصاً بل كشَفَتْ عالَماً تدخله بنفسٍ غير النفس التي تُدَبِّرها في عالَم رزقها . . .

ولا أعجبَ من سحر الحب في هذا المعنى ؛ فان العاشقَ ليكونُ حبيبُه إلى جانبه ، ثم لا يُحسُّ إلا أنه طوى الأرضَ والسمواتِ ودخل جنةَ الخُلد في قُبلة . . .

* * *

جلستْ الينا كما تجلسُ المرأةُ الكريمةُ العفيفةُ ، تُعطيك وجهها وتبتعدُ عنك بسائرها ، وتُريك النُّصْفَ وتخبأ عنك أزهارَه . فرأيناها لم تستقبل الرجلَ منا بالأنثى منها كما اعتادت ؛ بل استقبلتْ واحياً برعاية ، وتلطفاً بحَنَان ، وأدباً من فن بأدب من فن آخر ؛ وكان هذا عجيباً منها ، فكلمها في ذلك الأستاذ (ح) فقالت : أما واحدةٌ فاننا نتبعُ دائماً نَحْبَةَ من مجالسهم وهذه هي القاعدة . وأما الثانية فاننا لا نجد الرجلَ إلا في النُّدْرة ؛ وإنما نحن مع هؤلاء الذين يَتَسَوَّمون بسيما الرجال — كحيلة المحتال على غفلة المغفل ، وهم معنا كالقُدرة بالثمن على ما يشتريه الثمن ؛ ليسوا علينا إلا قهرا من القهر ؛ ولسنا عليهم إلا سلْباً من السلب ، مادةٌ مع مادة ؛ وشرٌّ على شر ؛ أما الانسانيةُ منا ومنهم فقد ذهبتْ أو هي ذاهبة

قال (ح) : ولكن . . .

فلم تدعه يستدرك ، بل قالت : إن « لكن » هذه غائبة الآن . . . فلا تجيءْ في كلامنا . أتريد دليلا على هذا الانقلاب ؟ إن كل إنسان يعلم أن الخط المستقيم هو أقربُ مسافةٍ بين نقطتين ؛ ولكن كلَّ امرأةٍ منا تعلم أن الخط المعْوَجَّ هو وحده أقربُ مسافةٍ بينها وبين الرجل . . .

قالت : فاذا وجدتْ إحدانا رجلاً بأخلاقه لا بأخلاقها . . . ردَّتها أخلاقُه إلى المرأة التي كانت فيها من قبل ، وزادتها طبيعتُها الزَّهْوَ بهذا الرجل ، فتكون معه في حالة كمالة أكمل امرأة ؛ بيد أنه كمالُ الحُلُم الذي يستيقظُ وشيكا ، فان الرجل الكاملَ يكمُلُ بأشياء ، منها وأسفاه ! منها ابتعاده عنا .

ثم قالت : وصاحبك هذا منذ رأيتُه ، رأيته كالكتاب يشغَلُ قارئه عن معاني نفسه بمعانيه هو . . . .

* * *

وضحكت أنا لهذا التشبيه ، فمتى كان الكتابُ عند هذه كتاباً يشغلُ بمعانيه ؟ غير أني رأيتها قد تكلمتْ واحتفلَتْ ، وأحسنتْ وأصابت ، فتركتها تتحدث مع الأستاذ (ح) وغبتُ عنهما غيبةَ فكر ؛ وأنا إذا فكَّرتُ انطبق عليَّ قولهم : خَلِّ رَجُلاً وشأنَه ، فلا يتصل بي شيء مما حولي . وكان كلامُها يسطعُ لي كالمصباح الكهربائي المتوقِّد ، فقدَّمها فكرها الى غيرَ ما قدَّمت الىَّ نفسَها ، ورأيتُ لها صورتين في وقتٍ معاً ، إحداهما تعتذرُ من الأخرى . . . . .

وكنت قبل ذلك بساعة قد كتبت في تذكرة خواطري هذه الكلمة التي استوحيتُها منها : لأضعها في مقالة عنها وعن أمثالها وهي هذه الكلمة :

إذا خرجت المرأة من حدود الأسرة وشرعتها ، فهل بقي منها إلا الأنثى مجرَّدةً تجريدَها الحيوانيَّ المتكشِّفَ المتعرضَ للقوة التي تناله أو ترغب فيه ؟ وهل تعملُ هذه المرأةُ إلا أعمالَ هذه الأنثى ؟

وما الذي استرعاها الاجتماعُ حينئذ فترعاه منه وتحفظه له ؛ إلا ما استرعى أهلُ المال أهلَ السرقة ؟ إن الليلَ ينطوي على آفتين : أولئك اللصوص ، وهؤلاء النساء

وكيف ترى هذه المرأةُ نفسَها إلا مشوَّهةً ما دامت

رذائلها دائماً وراء عينيها ، وما دام بإزاء عينيها دائماً الأمهاتُ والمحصناتُ من النساء ، وليس شأنُها من شأنهن ؟ إن خيالها يحرزُ في وعيه صورتَها الماضيةَ من قبل أن تَزِلّ ؛ فإذا خلت إلى نفسها كانت فيها اثنتان إحداهما تلعنُ الأخرى ، فترى نفسها من ذلك على ما ترى

وهي حين تُطالعُ مرآتَها لِتتبرّجَ وتحتفلَ في زينتها ، تنظرُ إلى خيالها في المرآة بأهواء الرجال لا بعينيْ نفسها ، ولهذا تُبالغُ أشدّ المبالغة ؛ فلا تُعنَى بأن تظهرَ جميلةً كالمرأة ، بل مُثمِرةً كالتاجر ... وتكسُبُها بجمالها يكون أولَ ما تفكر فيه ، ومن ذلك لا يكون سرورُها بهذا الجمال إلاّ على قدر ما تكسب منه ؛ بخلاف الطبع الذي في المرأة ، فإن سرورها بصحة الجمال عليها هو أولُ فكرها وآخرُه

إن الساقطة لا تنظر في المرآة — أكثر ما تنظر — إلا ابتغاءَ أن تتعهّدَ من جمالها ومن جسمها مواقعَ نظرات الفجور وأسبابَ الفتنة ، وما يَستهوي الرجلَ وما يُفسد العفّة عليه ، فكأن الساقطةَ وخيالها في المرآة رجلٌ فاسقٌ ينظر إلى امرأة لا امرأةٌ تنظر إلى نفسها ...

* * *

ذهبت أفكر في هذه الكلمة التي كتبتها قبل ساعة ، ولم أستطع أن ألبسَ في هذه القضية وجهَ القاضي ؛ فدخلتني رقةٌ شديدةٌ لهذا الجمال الفاتن الذي أراه يبتسم ، وحوله الأقدارُ العابسة ، ويلهو ، وبين يديه أيامُ الدموع ، ويجتهد في اجتذاب الرجال إليه ، والوقتُ آتٍ بالرجال الذين سيجتهدون في طرده عن أنفسهم

وتغشّاني الحزنُ ورأت هي ذلك وعرفته ؛ فأخرجت منديلها المعطّر ومسحت وجهها به ، ثم هزّته في الهواء فإذا الهواءُ منديلٌ معطرٌ آخر مسحتْ به وجهي . . .

وقال الأستاذ (ح) : آه من العطر ! إن منه نوعاً لا أستنشيه مرة إلا ردّني إلى حيث كنت من عشرين سنةً خلَتْ ، كأنما هو مُسجِّل بزمانه ومكانه في دماغي . . .

فضحكت هي وقالت : إن عطرنا نحن النساءَ ليس عطرا ، بل هو شعورٌ نثبته في شعور آخر

فقلت أنا : لا ريب أن لهذه الحقيقة الجميلة وجهاً غير هذا ؛

قالت : وما هو ؟

قلت : إن المرأة المعطرة المتزينة هي امرأة مُسلّحة بأسلحتها ، أفي ذلك ريب ؟

قالت : لا

قلت : فلماذا لا يُسمى هـــذا العطرُ بالغازات الخانقة الغرامية . . . ؟

فضحكت فُتوناً ؛ ثم قالت : وتسمى (البودرة) بالديناميت الغرامي . .

ونقلني ذلك إلى نفسي مرة أخرى ، فأطرقتُ إطراقة ؛ فقالت مابك ؟

قلت : بي كلمةُ الأستاذ (ح) ، إنها ألهبتْ في قلبي جمرةً كانت خامدة

قالت : أو حركت نقطة عطر كانت ساكنة . . .

فقلت : إن الحبّ يضع روحانيتهَ في كل أشيائه ، وهو يغير الحالةَ النفسيةَ للانسان فتتغيرُ بذلك الحالةُ العقليةُ للأشياء في وهم المحب . (فعطرُ كذا) مثلاً . . . هو نوعٌ شذِيٌّ من العِطر ، طيّبُ الشميم ، عاصفُ النشوة ، حادُّ الرائحة ، لكأنه ينشرُ في الجو روضةً قد مُلئتْ بأزهاره تُشمُّ ولا تُرى ؟ وإنه ليجعلُ الزمنَ نفسه عبقاً بريحه وإنه ليُشعِمُ كلَّ ما حوله طيباً وإنه ليسحرُ النفسَ فيتحوّل فيها . . .

وهنا ضحكتْ وقطعت عليّ الكلامَ قائلة : يظهر لي أن (عطر كذا) هاجرٌ أو مخاصم . . .

قلت : كلا ، بل خرج من الدنيا وما انتشقتُ أرَجَهُ مرة إلا حسبتُه ينفَح من الجنة

فما أسرعَ ما تلاشى من وجهها الضحكُ وهيئتُه ، وجاءت دمعةٌ وهيئتُها . ولمحت في وجهها معنى بكيتُ له بكاء قلبي

جمالها ، فتنتها ، سحرها ، حديثها ، لهوها ؛ آه حين لا يبقى لهذا كله عينٌ ولا أثر ، آه حين لا يبقى من هذا كله إلا ذنوبٌ ، وذنوبٌ ، وذنوب

* * *

وأردنا أنا و (ح) بكلامنا عن الحب وما إليه ألا نوحشها

من انسانيتنا ، وأن نَبُلَ شوقها إلى ماحُرِمَتْه من قدرها قدرَ إنسانة فيما تَتَعَاطاه بيننا . والمرأةُ من هذا النوع إذا طممت فيما هو أغلى عندها من الذهب والجوهر والمتاع — طممت فى الاحترام من رجل شريف متعفّف ، ولو احترامَ نظرةٍ ، أو كلمة . تقنعُ بأقل ذلك وترضى به ، فالقليلُ مما لا يدرك قليله هو عند النفس أكثرُ من الكثير الذى يُنالُ كثيرُه

ومثل هذه المرأة ، لا تدرى أنت أطافتْ بالذنب أم طاف الذنبُ بها ؟ فاحترامها عندنا ليس احتراماً بمعناه ، وإنما هو كالوجوم أمام المصيبة فى لحظة من لحظات رهبـــة القدَر وخشوع الايمان

وليست امرأةٌ من هؤلاء إلا وفى نفسها التندُّمُ والحسرةُ واللهفة مما هى فيه ، وهذا هو جانبُهن الانسانىُّ الذى يُنظرُ اليه من النفس الرقيقة بلهفة أخرى ، وحسرة أخرى ، وندم آخر . كم يرحمُ الانسانُ تلك الزوجةَ الكارهةَ المرغمةَ على أن تباشرَ من تكرهه فلا يزال يغلى دمُها بوساوس وآلامٍ من البغض لا تنقطع ! وكم يرثى الانسانُ للزوجة الغيور ، يغلى دمُها أيضاً ولكن بوساوس وآلام من الحب ! ألا فاعلم أن كل امرأة من مثل هـذه الحسناء تحمل على قلبها مثل همّ مائة زوجةٍ كارهةٍ مرغمةٍ مستعبدة ، يخالطُه مثلُ همّ مائة زوجة غيور مكابدةٍ منافسةً ، ولقد تكون للمرأةُ منهن فى العشرين من سنها وهى مما يكابدُ قلبها فى السبعين من عمر قلبها

وهذه التى جاءتنا إنما جاءتنا فى ساعة منا نحن لا منها هى ، ولم تكن معنا لا فى زمانها ولا فى مكانها ولا فى أسبابها ، وقد فتحت البابَ الذى كان مغلقاً فى قلبها على الخفر والحياء ، وحوّلت جمالها من جمالٍ طابعهُ الرذيلةُ إلى جمال طابعُه الفن ، وأشعرت أفراحَها التى اعتادتها روحَ الحزن من أجلنا فأدخلت بذلك على أحزانها التى اعتادتها روح الفرح بنا

من ذا الذى يعرف أن أدبه يكون إحساناً على نفسٍ مثل هذه ثم لا يُحسن به ؟ (١)

* * *

تتجددُ الحياةُ متى وجد المرءُ حالةً نفسيةً تكون جديدةً فى سرورها . وهذه المرأةُ المسكينةُ التى لا يعنيها من الرجل مَن هو ؟ ولكن كم هو ...؟ لم ترَ فينا نحن الرَّجلَ الذى هو « كم » بل الذى هو « من » . وقد كانت من نفسها الأولى على بُعدٍ قصىّ كالذى عدَّ يده فى بئر عميقة ليتناولَ شيئاً قد سقط منه ؛ فلما جلست الينا اتصلت بتلك النفس من قُرب ، إذ وجدت فى زمنها الساعةَ التى تصلح جسراً على الزمن

قال الراوى : كذلك رأيتها جديدة بعد قليل ، فقلت للأستاذ (ح) : أما ترى ما أراه ؟

قال : وماذا ترى ؟ فأومأتُ إليها وقلت : هذه التى جاءت من هذه . إن قلبها ينشر الآن حولها نوراً كالمصباح إذا أُضىء ، وأراها كالزهرة التى تفتّحت ؛ هى هى التى كانت ، ولكنها بغير ما كانت

فقالت هى : إنى أحسبُك تحبنى ؛ بل أراك تحبنى ؛ بل أنت تحبنى . . . لم يخْفَ على هذا منذ رأيتك ورأيتنى

قلت : هيهِ صحيحاً فكيف عرفتِه ولم أصانعكِ ، ولم أتملّق لك ، ولم أزد على أن أجىء الى هنا لأكتب ؟

قالت : عرفته من أنك لم تصانعنى ، ولم تتملق لى ، ولم تزد على أن تجىء الى هنا لتكتب . . .

قلت : ويحكِ لو كُحِلَتْ عينُ (المكرسكوب) لكانت عينَك . وضحكنا جميعاً ؛ ثم أقبلتُ على الأستاذ (ح) فقلت له : إن القضايا إذا كثر ورودُها على القاضى جعلتْ له عيناً باحثة .

* * *

قال الراوى : وأنظرُ إليها فاذا وجهُها القمرىُّ الأزهرُ قد شَرِقَ لونه وظهر فيه من الحياء ما يظهر مثلُه على وجه العذراء المخدَّرة إذا أنت مسستَها بريبة ؛ فما شككتُ أنها الساعةَ امرأةٌ جديدة قد اصطلح وجهُها وحياؤُها ، وهما أبداً متعاديان فى كل امرأة مكشوفة العفة . . .

وذهبتُ أستَدْرِك وأتأوّل ، فقلت لها : ما ذاك أردتُ ، ولا حدّثتُ على هذا الظن ، وإنما أنا مُشفِق عليك متألم بك ؛ وهل يَعْرِضُ لكِ إلا الطبقة النظيفة . . . من المجرمين والخُبثاء وأهل الشرّ ؛ أولئك الذين أعمالهم فى دُور الخلاعة

(١) فى كتابنا (السحاب الأحمر) فصل طويل عنوانه (الربيطة) كتبناه فى مثل موضوع (الجمال البائس) غير أنه يعنى آخر ومعان أخر . والربيطة هى الكلمة العربية التى تقابل كلمة Maitresse يريد بها الأوربيون المرأة التى ترتبط بأجر فى دار الرجل لتحل محل الزوجة . : .

والمسارح وأسافلهم فى دُور القضاء والسجون ؟

فقالت : اعترفْ بأنك لم تحسِنْ قلبَ الثوب فظهر لكل عين أنه مقلوب ؛ لكنك تحبنى . . . . وهذا كافٍ أن ينهضَ منه عُذر

قال الأستاذ (ح) : إنه يحبك ، ولكن أتعرفين كيف حبُّه ؟ هذا بابٌ يضع عليه دائماً عِدّةً من الأقفال

قالت : فما أيسرَ أن تجد المرأةُ عدةً من المفاتيح . . .

قال : ولكنه عاشقٌ يُنير العشقُ بين يديه ، فكأنه هو وحبيبته تحت أعين الناس ، ما تطمعُ إلا أن تراه وما يطمعُ إلا أن يراها ، ولا شيء غير ذلك . ثم لا يزال حبُّها عليه ولا يزال هواه إليها ، وليس إلا هذا

قالت : إن هذا لعجيب

قال : والذى هو أعجب أنْ ليس فى حبه شيء نهائى ، فلا هجرٌ ولا وصل ؛ ينساكِ بعد ساعة ولكنك أبداً باقيةٌ بكل جمالك فى نفسه . والصغائرُ التى تُبكى الناسَ وتَتَلذّعُ فى قلوبهم كالنار ليجعلوها كبيرةً فى همِّهم ويطفئوها وينتهوا منها كسائر شهوات الحب — تبكيه هو أيضاً وتعتلجُ فى قلبه ، ولكنها تظلُّ عنده صغائرَ ولا يعرفها إلا صغائر ؛ وهذا هو تجبُّرُه على جبّار الحب

* * *

قال الراوى : ونظرتُ إليها ونظرتْ ، وعاتبتْ نفسٌ نفساً فى أعيُنهما ، وسألت السائلةُ وأجابت المجيبة ، ولكن ماذا قلت لها وماذا قالت ؟

(ملطيا) محمد عزت دروزة

ظهر حديثاً كتاب :

نقد كتاب حياة محمد

للأستاذ عبد الله القصيمى النجدى

ويباع بمكاتب القاهرة وثمنه ٢٠ مليما

لأحياء الآداب العربية والتراث القومى

وصحة دار الكتب المصرية

للأستاذ محمد عبد الله عنان

يستطيع الذين درسوا الآداب التاريخية الغربية ، وقرأوا تواريخ الأمم الغربية فى تلك الموسوعات والآثار الجليلة التى تمتاز بطابعها العلمى الدقيق ، أن يقولوا بحق إن تاريخ الاسلام والأمم الاسلامية لم يكتب حتى عصرنا

إن الآداب العربية تزخر بالموسوعات والآثار التاريخية فى كل عصر ، وكل قطر ؛ ومنها بلا ريب آثار كثيرة تمتاز بدقتها ونفاستها ؛ ولكن هذه الآثار تقف أولاً منذ عصر بعيد ، فلا تكاد تجد فى العربية موسوعة أو مؤلفاً تاريخياً جليلاً منذ القرن العاشر الهجرى ، وهى من جهة أخرى لا يمكن أن تعتبر أكثر من مادة لتغذية المؤرخ الحديث بما يحتاج إليه من التفاصيل والوثائق ؛ ومن الأنصاف أن نقول إن هذه المادة تمتاز بغزارتها فى عصور كثيرة ، ولكن من الأسف أن أغلبها ما زال يحتجب عن أعيننا فى أروقة المكاتب والمجموعات الخاصة ، فلا يصل إليها الباحث إلا بعد الجهد المضنى

وهذه مسألة تستحق الاهتمام من كل أولئك الذين يتصلون بالمباحث الاسلامية والتاريخية ، وأولئك الذين يشرفون على توجيه الثقافة القومية ، وفى مقدمتهم وزارة المعارف العمومية والجامعة المصرية . فالى الآن لم يكتب تاريخ مصر الاسلامية ، ولا مصر الحديثة بما يجب من دقة وإفاضة ، وإلى الآن لم تعرف مصادر التاريخ المصرى معرفة حسنة حتى من كثير من أولئك الذين يعنون بكتابته أو بتدريسه ؛ وإنه لما يبعث إلى الدهشة كما يبعث إلى الأسف أن نجد الكتب الدراسية التى يعتمد عليها الشباب فى دراسة التاريخ المصرى أو الاسلامى بوجه عام ، خلاصة مشوهة اشتق معظمها من المؤلفات الأجنبية ، وهى لذلك تفيض بالأخطاء والمثالب ، وينقصها روح الانصاف